الفصل الثالث

النبات والفلاحة والرى فى القرآن الكريم

القرآن .. مصدراً للمعلومات :

تشكل العقيدة الاسلامية المحور الأساسى الذى دار حوله الانتاج الفكرى فى التراث العربى فى كافة مجالاته وأشكاله طوال ما يزيد على أربعة عشر قرنا من القرون الماضية مثلت القرون الخمسة الأولى منها على وجه التقريب من بعد ظهور الاسلام ذروة الازهار الثقافى . ومن المعروف أن الانتاج الفكرى الذى شهدته هذه المنطقة لم يكن جهدا قام به العرب وحدهم ، وإنما شاركهم فيه علماء ومفكرون من مختلف البلدان التى انضوت تحت لواء الاسلام ، فهناك فرس وهنود وأتراك وأسبان ..الخ ، ولكنه إنتاج أفرزته حضارة قدح زنادها ظهور الدين الاسلامى ، وأتاح لها النمو والازدهار بما أقامه من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية ومن هنا كانت خطوتنا الحالية محاولة لاستقراء مصدرى الاسلام الرئيسيين ، القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فى الفصل الحالى والفصل التالى بحثا عن صورة النبات والفلاحة والرى عند العرب .

ولكننا ونحن نفعل هذا ، لا ننطلق من النظر إلى القرآن والسنة على أنهما عملان علميان فى العلوم الزراعية ، فالقرآن كتاب الله لهداية البشر ودستور الحياة ، والسنة هى المفسرة له ، ومن ثم فما يجئ من إشارات علمية إنما يجئ بشكل يلفت النظر إلى نظام الكون وسننه مما ينبئ بوجود خالق عليم بصير ، كما نرى فى العديد من آيات القرآن الكريم تشير إلى الأمطار والرياح والكثير ممن النباتات والبذر والحصد والزرع ، وما إلى هذا وذاك من مشاهد فى هذا الكون تتصل بعالم الزراعة.

إن العلم بصفة عامة ما كان له أن يقوم إلا وفقا لتوافر " سنن " ، قوانين تحكم مختلف الظواهر ، وعندما نقرأ فى القرآن آيات تؤكد على وجود هذه السنن

والقوانيـــن ، فالإشـــارة تجئ لتقرر أمرا عاما ونظرا كليا ، يدفع الإنسان إلى أن يتجه بقلـــبه وعقلـــه إلى مقرر هذه السنن التى لولاها لما أمكن قيام هذا العلم وذاك ، أما ما هـــو القـــانون الذى يحكم هذه الظاهرة أو تلك ، فهذا أمر تُرك للإنسان وجهده للكشف عنه .

فهـــناك سنن كونية على سبيل المثال تجرى على نسق مستقر بتقدير الله العزيز الحكيم [١] .

والسنن فى الأمم جارية على أنها تهلك فى الدنيا إذا انحرفت عن الجادة ، فتلك حتمـــية تاريخية من قوانين الله ، يقول تعالى (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِـــبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) النحل /٣٦ ، وفى سورة فاطر ، آية ٤٤ (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَـــنْظُرُوا كَـــيْفَ كَـــانَ عَاقِـــبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ) آيـــة ٤٤ ، ومثل ذلك فى سورة الروم ، آية ٩ ، وآل عمران ، آية ١٣٧ ، وقوله فى سورة يونس ، آية ١٠٢ (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ) ، وقوله فى ســـورة الأنفال ، آية ٥٣ (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَـــا بِأَنْفُسِـــهِمْ) ، وقوله فى هود ، آية ١١٧ (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْـــلِحُونَ) ، وقولـــه فى الإسراء ، آية ١٦ (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرا) .

أما السنن فى الأفراد فجارية بالثواب والعقاب على الصلاح والفساد ، مع فضل الله بانـــتظار الـــتوبة وتأجيلهم لعلهم يصلحون ، وله الكلمة العليا فى مصايرهم ، يقول تعـــالى فـــى ســـورة فاطـــر ، آية ٤٥ (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْـــرِهَا مِـــنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً) ، ومثل هذا فى سورة النحل ، آية ٦١

ثـــم أنه لا تعارض البتة بين كون القرآن الكريم كتاب هداية ربانية ، وإرشادات إلهـــية ، ودســـتور عقـــيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات ، وكتاب تشريع سماوى يشمل نظامـــا كاملا للحياة ، وبين احتوائه على عدد من الإشارات العلمية الدقيقة التى وردت

فـــى مقـــام الاستدلال على عظمة الخالق وقدرته فى إبداعه للخلق ، وعلى إفناء ما قد خلـــق ، وإعـــادة كـــل ذلك من جديد ، وذلك لأن الإشارات تبقى بيانا من الله – خالق الكون ومبدع الوجود – فلابد وأن تكون حقا مطلقا ، لأنه لا أدرى بالخليقة من الخالق سبحانه وتعالى [٢] .

والقـــول بعـــدم جواز تأويل الثابت بالمتغير قول يحتاج إلى مناقشة ، لأن معناه الجمـــود علـــى فهم واحد لكتاب الله ينأى بالناس عن واقعهم فى كل عصر ، حتى لا يستســـيغوه فيملوه ويهملوه ، وثبات القرآن ، وهو من السمات البارزة له ، لا يمنع من فهـــم الإشارات الكونية الواردة فيه على أساس من معطيات العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقـــية ، حـــتى ولو كان ذلك يتسع من عصر إلى آخر بطريقة مطردة ، فالعلوم المكتسبة كلها لها طبيعة تراكمية ، ولا يتوافر للإنسان منها فى عصر من العصور إلا أقـــدار تتفاوت بتفاوت الأزمنة ، وتباين العصور ، وتقدما واضمحلالا ، وهذه الطبيعة التراكمية للمعرفة الإنسانية المكتسبة تجعل الأمم اللاحقة أكثر علما فى مجال الكونيات – بصـــفة عامـــة – مـــن الأمم السابقة ، إلا إذا تعرضت الحضارة الإنسانية بكاملها للانتكاس والتدهور .

لكنـــنا مـــع هـــذا لا نستطيع أن نتقبل بعض مظاهر الغمز واللمز التى تحفل بها بعـــض كتـــب المستشرقين على الرغم من اعترافنا وتقديرنا لهذا الجهد العلمى الرائع الـــذى قاموا به فى سبيل البحث عن التراث العربى وتحقيقه ونشره ودراسته . وليس هنا مجال مناقشة هذه القضية ولذلك سوف نقتصر على عدد محدود من الأمثلة لواحد فقـــط وهو المستشرق الروسى " كزانتشكوفسكى " الذى عرف بالدقة العلمية والمنهجية الطيـــبة ، فقـــد كتب يقول : " .. ومن الجلى أن محمدا كان رجلا أميا ، وتكتسب هذه الحقـــيقة مغزى خطيرا لأنها تسوقنا إلى الافتراض بأن القرآن هو جماع تلك المعارف الـــتى حصل عليها محمد بطريق السماع " [٣] ." ... وهى فكرة متداولة بين الساميين الغربيين ، وعرفها محمد ولو بصورة مبهمة " . " ومما زاد فى اللبس أكثر ، أن هذه المســـألة – المـــتعلقة بالبحرين – لم تكن واضحة لمحمد نفسه وأن ألفاظة فى عدد من المواضع تحمل طابع الغموض " [٤] .

بمـــثل هذا الإصرار ، يتحدث المؤلف عن القرآن الكريم متأثرا بعقيدته فى أنه كـــلام محمـــد صلى الله عليه وسلم ، كما لاحظت د. عائشة عبد الرحمن فى تعليقاتها الملحقـــة بالـــترجمة العربية للكتاب ، وقد جهد المستشرقين قبله فى الحديث عن صنع محمـــد (ﷺ) لهذا القرآن ، لكن كان الظن بمثل كراتشكوفسكى أن ينأى ببحثه عن كل مـــا يتعلق بالدين ، وهو من قوم قد اطمأنوا منذ ثورتهم البولشفية إلى إخراج المسألة الدينية من الحياة . وكتابه قد تم تأليفه سنة ١٩٤١ بعد نحو ربع قرن من تلك الثورة ، ومـــع ذلـــك لـــم يبرأ منطقه من هذه اللوثة التى تسمم عمل الجمهرة من المستشرقين وتعطى لمتهميهم كل الحق فى إنكار صنيعهم وعدم نزاهة بحوثهم ، بل فسادها منهجيا وعلميا (٥) .

وكمـــا أنـــنا لا نستطيع أن نلزم كراتشكوفسكى بعقيدتنا فى القرآن وحيا منزلا ، لا يســـتطيع هـــو أيضا أن يقحم على البحث عقيدته فى أن هذا القرآن من صنع محمد (ﷺ) . وإذن فقـــد كان ينبغى أن يتجرد البحث العلمى فى النص القرآنى متحررا من ســـيطرة مذهـــبه ليمكـــن أن نلتقى جميعا على أصول منهج حر ، وضوابط علمية فى النظر والمناقشة ، دون تدخل من عقيدة أو مذهب لا نلتقى عنده أبدا .

وهـــذا الإقحام للمسألة الدينية فى البحث ، هو المسؤول عن أخطاء علمية تورط فيها المؤلف من حيث يدرى ولا يدرى (٦) :

فاعـــتقاده أن القرآن من كلام محمد ، جره إلى محاولة الربط بين المادة العلمية فى القرآن وبين الثقافة المتاحة لمحمد (ﷺ) فى بيئته وعصره ، فلما تعذر عليه ذلك ، مضـــى يلـــتمس العلل ويتكلف الأسباب لرد هذه المادة العلمية إلى أصول يغلب عليها الوهم والافتعال .

ونفهـــم أن يجهـــل كراتشكوفســـكى مهمة القرآن من حيث هو رسالة سماوية ، ولكـــنا لا نفهـــم كيف غاب عنه أن محمد (ﷺ) كان فى الواقع التاريخى – ولا نلزمه بالعقيدة الاسلامية – نبيا دعا إلى دين جديد . وهذه الصفة لابد منها لفهم طبيعة النص القـــرآنى ، كـــتاب نبى الاسلام ، لكيلا يتورط المؤلف فيما تورط فيه من أخطاء حين

تناول القرآن وكأنه يناقش كتابا فى الجغرافيا أو فى علم النبات أو غيرهما ، وراح يحاسبه – مثلا – على ما أسماه نظريات جغرافية جاءت فيه ولو أنه قدر الحق التاريخى الذى يعرف ، فى الواقع الثابت ، محمدا إلا نبيا ، لما غابت عنه طبيعة النص القرآنى من حيث هو رسالة نبى وكتاب دين ، وليس كتابا فى الجغرافيا أو النبات أو الفلك أو الجيولوجيا [٧] .

آية من آيات الله :

وأظهر ما تجئ بشأنه آيات القرآن الكريم التى تتناول موضوعنا ، هى البرهنة على أن النبات والماء هما آيات من آيات الله ، يؤكد وجودهما وأشكالهما على أن الله هو الذى أوجدهما وأنه قادر على محوهما وتغيير مسارهما :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأرض لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٨].

فهذه الطريقة فى تنبيه الحواس والمشاعر ، جديرة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون العجاب التى تفقدنا الألفة جدتها وغرابتها وايحاءاتها للقلب والحس ، وهى دعوة للإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذى يراه أول مرة مفتوح العين ، متنبه الحس ، حى القلب ، وكم فى هذه المشاهد المكررة من عجيب ، وكم فيها من غريب ، وكم اختلجت العيون والقلوب وهى تطلع عليها أول مرة ، ثم ألفتها ففقدت هذه المفاجأة ، ودهشة المباغتة ، وروعة النظرة الأولى إلى هذا المهرجان العجيب [٩] .

وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها .. كلها مشاهد لو أعاد الإنسان تأملها – كما يوحى القرآن للقلب المؤمن – بعين مفتوحة وقلب واع ، لارتجف كيانه من عظمة القدرة ورحمتها ، تلك الحياة التى تنبعث من الأرض حين

يجودهـا الماء .. هذه الحياة المجهولة الكنه ، اللطيفة الجوهر التى تدب فى لطف ، ثم تتـبدى جاهـرة معلـنة قويـة .. هذه الحياة من أين جاءت ؟ كانت كامنة فى الحبة والـنواة ! ولكـن من أين جاءت إلى الحبة والنواة ؟ أصلها ؟ مصدرها الأول ؟ إنه لا يجـدى الهـرب من مواجهة هذا السؤال الذى يلح على الفطرة .. لقد حاول المنكرون تجـاهل هـذا السـؤال الذى لا جواب عليه إلا وجوب خالق قادر على إعطاء الحياة للمـوات . وحـاولوا طويلا أن يوهموا الناس أنهم فى طريقهم إلى إنشاء الحياة ، بلا حاجـة إلـى الـه ! ثم اخيرا إذا هم ينتهون إلى نقض أيديهم والاقرار بما يكرهون : استحالة خلق الحياة [١٠] .

والله سـبحانه وتعـالى قـد جعـل فى تربة الأرض القدرة على تشرب الماء (التمـيؤ) ممـا يؤدى إلى زيادة حجمها وانتفاخها وانتفاضها إلى أعلى بمجرد نزول الماء عليها ، ويساعد على ذلك ما يقوم به الماء من طرد للغازات الحبيسة بين رقائق المعادن الصلصالية ، ومن تحويل لحبيبات الصلصال الدقيقة إلى الحالة الغروية وهى حالـة مـتحركة ، تتدافع فيها الجسيمات المادية الدقيقة بأقدار غير متساوية فى جميع الاتجاهـات ، وما يتم أثناء ذلك من عمليات إحلال كيميائية ، ومن عمليات تنافر بين الشـحنات الكهربائـية المتشـابهة فـى كل من جزئ الماء المزدوج القطبية وأيونات العناصـر المخـتلفة الموجودة فى التربة أو على أسطح الراقات الصلصالية ، ويعين على ذلك أيضا إنبات البذور وانتعاش غيرها من صور الحياة وبقاياها بمجرد وصول المـاء إليها فتحدث زيادة كبيرة فى حجمها وفى نشاطها الحيوى مما يؤدى إلى ارتفاع الـتربة إلـى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتنشق لتفسح طريقا سهلا لخروج السويقات المـندفعة مـن داخل البذور النابتة إلى ما فوق سطح الأرض [١١] ، ولذلك قال سبحانه وتعـالى (وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) الحج /٥

ويقـول تعـالى : (وَفِـي الأرض قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِـيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [١٢] .

ففـي هـذه الآية ، دليل آخر من عالم النبات والماء على قدرة الله عز وجل ، فالمـاء إذا كـان سببا فى الحياة ، فإنه يجرى فى ذلك على سنة إلهية حكيمة تدل على الوحـدة والرحمة. ثم أنه آية فى تأثيره فى العوالم الحية أيضا ، فإن هذا النبات يسقى بمـاء واحد هو مصدر حياته ، ثم هو مختلف فى ألوانه وطعومه ورائحته ، فتجد فى الأرض الواحـدة نبـتة الحنظل مع نبتة البطيخ متشابهتين فى الصورة متضادتين فى الطعـم . وتجـد النخلة وتمرها ما تذوق حلاوة ولذة ، وتجد فى جانبها شجرة الليمون الحـامض والـنارنج وثمرها ما تعرف حموضة وملوحة ، وتجد بالقرب منها شجرة الـورد لهـا من الرائحة ما ليس للنخلة وما يخالف فى أريجه زهر النارنج ، بل يوجد فـي الشجرة ما له زهر زكى الرائحة ، فإذا قطعت الغصن الذى فيه هذا الزهر تنبعث مـنه رائحـة خبيـثة ، فتلك السنن – التى يتكون وفقها المطر وينزل – جارية بنظام واحـد دقيق ، وكذلك طرق تغذى النبات بالماء هى جارية بنظام واحد ، فوحدة النظام وعـدم الخلل فيه تدل على أن مصدره واحد ، فهو من هذه الجهة يدل على الوحدانية الكاملـة ، ومـن جهـة مـا للخلق فيه من المنافع والمرافق يدل على الرحمة الإلهية الشـاملة ، وقل مثل هذا فيما بث الله تعالى فى الأرض من كل دابة ، فإنها آيات على الوحدة ودلائل وجودية على عموم الرحمة [١٣].

ويذكـر رشـيد رضا أنه كان قد كتب كتابا فى العقائد ألفه باقتراح للشيخ محمد عـبده واطلـع عليه فأعجبه ، استغل فيه حياة النبات لشرح عقيدة التوحد ، وإننا نود إيراده هنا لأننا لم نر فى كتب التفسير ولا فى كتب الكلام والعلوم كلاما ممتعا فى هذا المقـام . وهـو وارد بأسلوب السؤال من تلميذ مبتدئ فى المدارس والجواب من أخيه وهـو عـالم عصرى طبيب نعبر عنه بـ (الشاب) ، ومن أبيه ، وهو عالم صوفى نعبر عنه بـ (الشيخ) وهذا نص منه : [١٤] .

قـــال التلميذ : تنبت الشجرة صغيرة ثم تنمو حتى تكون فى زمن قريب أضعاف مـــا كانـــت ، فمن أين تجئ هذه الزيادة ؟ وكيف تدخل فى بنيتها وتتفوق فتأخذ الساق منها حظا ، والفروع حظا ، وكذلك الورق والثمر ؟

الشاب : إن هذه الزيادة التى تدخل فى بنية النبات بعضها من الأرض وبعضها من الهواء والنبات جسم حى ، فهو بضعة الحياة يأخذ من عناصر الأرض والهواء ما يصـــلح لغذائـــه فيغذى به كما يتغذى الحيوان بما يأكله ويشربه وينمو بذلك كما ينمو الحيوان .

التلمـــيذ : إنـــنا لا نرى فى الأرض ولا فى الهواء شيئا من مادة النبات ولا من صفاته كاللون والطعم والرائحة .

الشـــاب : انـــه يـــأخذ مـــنها العناصر البسيطة ، فيأخذ من الهواء الأوكسجين والنتروجيـــن (ازوت) وكذلك الكربون ، وبعض الأملاح التى توجد فى الهواء عادة وإن لـــم تكن جزءا منه ، ويأخذ من الأرض ما يناسبه من عناصرها الكثيرة كالبوتاسا والفوسفور والحديد والجير والأملاح ، ويكون مما يأخذه من ذلك غذاؤه بعمل كيميائى منـــتظم يعجز عن مثله أعلم علماء الكيميا . وقد علمت أن جميع هذه الصور المختلفة الأشـــكال والصفات إنما اختلف بعضها عن بعض باختلاف التركيب الكيماوى وعمل الطبـــيعة ، حـــتى أن مـــادة السكر هى عين المادة التى يتكون منها الحنظل ، والماس والفحم الحجرى من عنصر واحد .

الشـــيخ : إن النـــبات لا حياة فيه ، ولو كان يعمل عمله الذى ذكرت فى معنى الـــنمو وكيفية مما تقتضيه صفة الحياة التى أثبتها له ، لكان عالما بعمله ومختارا فيه ، ولـــم يـــرد بهـــذا نقل ولا أثبته عقل ، فنمو النبات إنما يكون بمحض إرادة الله تعالى وقدرته .

الشـــاب : لا دلـــيل على أن للنبات علما ولا على أنه لا علم له ، فهو فى عمله كأعضـــاء الإنســـان وغيره من الحيوانات التى تعمل أعمالا منتظمة لا شعور للانسان بهـــا ولا هى صادرة عن علمه وتدبيره كأعمال المعدة والكبد فى هضم الطعام ، فليس

عـندنا دلـيل علـى أن للمعدة علما خاصا ولا على أنه لا علم لها ، ولكننا نعلم أنها عضـو حـى بحـياة صاحبه ، فإذا أبين منه ثم وضع فيه الطعام ، فإنه لا يعمل ذلك العمل . وكون كل شى بقدرة الله ، لا يمنع أن يكون لكل شئ سبب ، فالله تعالى حكيم لا يعمـل شيئا إلا بنظام (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) (١٥) .

التلميذ : من أين تكون هذه الحياة النباتية للنبات ؟ .. فهل المادة التى يتغذى بها النبات حية فيأخذ منها حياته ؟

الشاب : كلا ، إن مواد التغذية ليست حية بنفسها ، ألا ترى أن الإنسان لا يأكل شـيا من الحيوان إلا بعد إماتته بنحو الذبح والطبخ ، ولا يأكل نباتا إلا بعد إزالة حياته النباتـية ولـو بالقطع والمضغ فقط ؟ وكذلك النبات . ولكن فى النواة التى تتولد منها الشـجرة .. حـياة كامنة مستعدة لتنمو بالتغذية على ما نشاهد فى الكون ، وهذه الحياة مجهولة الكنه والمبدأ حتى اليوم ، وأمرها أخفى من أمر المادة فى كنهها ومبدئها .

الشـيخ : إذا كنـتم فى علمكم هذا أرجعتم جميع العناصر التى تألفت منها مادة الكـون إلـى شـئ واحد عرف أثره ، ولم تعرف حقيقته .. فما بالكم تقفون فى حياة بعـض المـواد كالنبات ... وتقولون : لا نعرف مبدأ حياته وحقيقتها وتقفون عند هذا الحـد ولا تقولـون : إن الـذى صدرت عن ذاته جميع الذوات هو الحى القيوم الذى صدرت عن حياته كل حياة .

الشـاب : لا شـك أن الوجـود الواجب القديم هو حى كما أنه قيوم ، فإذا كان معـنى قيومته أنه قائم بنفسه ، وكل شئ قائم به ، فكذلك هو حى بذاته ، وكل ما عداه مـن الأحـياء فهو حى به ، أى أنه يستمد حياته منه ، لأن هذه الأحياء كلها من نبات وحيوان هى حادثة ، والحادث : هو ما كان وجوده من غيره لا من ذاته ، فالحياة أمر وجـودى ، بل هى أعلى مراتب الوجود ، فهل يقول عاقل : إن تلك الذات الأزلية قد صـدرت عنها أشياء كلها بلا حياة ! ثم إن بعضها أحدث لنفسه حياة ؟ هذه سخافة لا تخطـر فـى بال عاقل ، فالإنسان أرقى الأحياء على هذه الأرض لأن من أثر حياته

العلـم بالكليات والإرادة والتدبير والنظام ، وهو عاجز عن هبة الحياة لنفسه ولغيره ، فغيره من الأحياء أحق بالعجز !

ومـن أبـرز آيـات الله فى عالم النبات ، تلك الإشارات المتعددة التى جاءت بالقـرآن الكـريم إلـى عملية التكاثر فى النبات ، وينبغى التذكير بأن التكاثر فى عالم النـبات يـتم عـن طريقين : الكاثر التناسلى ، والتكاثر اللاتناسلى . والحق يقال بأن الطريق الأول هو الوحيد الذى يستحق أن يعطى لقب التكاثر لأنه يحدد امتدادا حيوانيا غرضه ظهور كائن جديد مماثل للذى منحه النشأة.

والـتكاثر اللاتناسلى هو تكاثر بسيط يتحقق من انقسام جسم إلى أقسام ، يحاول أحدهـا حال انفصاله عن الأصل ، الاستحصال على أن يعيده شبها بالذى انفصل عنه ويعتـبره كـل من Mongenot و Guillermond " حالة خاصة بالنمو " وعملية زرع النسـول تعطيـنا مثالا لذلك ، فالفرع المقطوع من نبتة إذا زرع بطريقة مناسبة فـى أرض ، ثم سقى ، تعود إليه الحياة بنمو جذوره . ولبعض النبات أعضاء مختصة بهـذه المهمـة بينما يحمل البعض الآخر آلات التناسل – إذا صح هذا التعبير – كأنها البذور (هى ثمرة امتداد التكاثر التناسلى) [١٦] .

والـتكاثر التناسـلى للنبات يتفاعل بتلاقح عناصر الذكورة والأنوثة المنتمية إلى تكونـات مولدة ملتقية جميعها فى نفس النبتة أو منفصلة وهذه وحدها نراها فى القرآن (الَّـذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى) [١٧] .

وأزواج جمـع زوج ، ومعـناه الأولى : ما يكون مع آخر مثله زوجا وينطبق أيضا على الزوجين (العروسين) وعلى زوج الأحذية .

ويقـول تعـالى : (وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَـتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)[١٨] . وأيضا : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) [١٩] وأيضا (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ) [٢٠] .

إنـــنا نعلـــم بأن الثمرة هى نهاية دورة التكاثر لدى النباتات العالية ذات التنظيم الأكـــثر كمالا وتركيبا ، يسبقها مرحلة الزهرة مع أعضاء الذكورة (اللقاح) والأنوثة (البويضات) التى بعد حملها اللقاح ، تعطى الثمرات التى تخرج الحب بعد نضجها ، فكـــل ثمـــرة إذن تتطلب وجود أعضاء الذكورة والأنوثة ، وهذا ما تريد الآية القرآنية قوله [٢١] .

ومـــع ذلـــك ، فإنه ينبغى أن يلاحظ بأن بعض الأنواع تأتى من زهر غير ملقح (ثمـــر رجعـــى) كما هو الحال فى الموز ، وبعض أنواع الأناناس والتين والبرتقال والعنب . وهذه الثمار رغم ذلك ، منحدرة من نباتات ذات جهاز تناسلى .

واكـــتمال عملـــية الـــتكاثر يتم بامتداد تفريغ الحبة بعد انفتاح قشرتها الخارجية (التى يمكن أن تكون متركزة فى النواة) التى تسمح بخروج الجذور التى تتشعب فى الأرض ، وهـــذا لضـــرورة المحافظـــة على الغرسة ذات الحياة البطيئة للحبة ولتنمو وتعطـــى كيانا جديدا . ويشير القرآن إلى عملية الإنبات هذه فى قوله : (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) [٢٢] .

والقـــرآن الذى أكثر من ترداد وجود هذه الازواج فى عالم النبات يسجل مفهوم الزوجية هذا فى إطار أعم : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ) [٢٣] .

الدورة الهيدرولوجية :

وهـــذه المياه التى يتغذى بها النبات والحيوان على سطح هذه اليابسة ، كلها من المطـــر ولا يســـتثنى مـــن ذلك أرض بلد مثل مصر فيقال أن حياتها بماء النيل دون المطـــر ، فان مياه الأنهار والعيون التى تنبع من الأرض كلها من المطر ، فهو يتخلل الأرض فيجـــتمع فيندفع . وقد امتن الله تعالى بذلك علينا وأرشدنا إلى أيته فيه بقوله : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ) [٢٤] ، فالبحـــيرات التى هى ينابيع النيل من ماء المطر والزيادة التى تكون فى أيام الفيضان

هـــى مـــن المطر الذى يمد هذه الينابيع ويمد النهر نفسه فى مجراه من بلاد السودان ، وكثرة الفيضان وقلته ، تابعة لكثرة المطر السنوى وقلته هناك .

وربمـــا يكـــون مفيدا أن نقف وقفة أخرى أمام ما ورد بسورة النور ، آية ٤٣ ، فما كشف عنه العلم الحديث يعيننا على فهم أدق للآية :

قـــال تعـــالى (ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه لم يجعله ركاما فترى الـــودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يخطف الأبصار) .

فقولـــه تعـــالى " ألـــم تر أن الله يزجى " ، يعنى أن الريح تزجى السحاب ، أى تسوقه سوقا رقيقا ، وهذا ما يمثل الخطوة الأولى من تكوين السحاب الركامى .

(ثـــم يؤلـــف بينه) ، فالتأليف هو الجمع مع الترتيب والملاءمة ، وفى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (٢٥) يقول " أى يجمعه عند انتشائه ليقوى ويتصل ويكثف " ، وهو ما يمكن أن ينطبق على المرحلة الثانية للسحاب الركامى .

(ثـــم يجعلـــه ركامـــا) ، فالركم فى اللغة يأتى بمعنى إلقاء الشئ بعضه فوق بعض ، ومن ثم فهذا النص يشير على المرحلة الثالثة فى تكوين السحاب الركامى .

(فـــترى الودق يخرج من خلاله) ، الودق هو المطر عند جمهور المفسرين ، وهو المرحلة الأخيرة المتمثلة فى نزول المطر فى السحاب الركامى .

ويقـــول ســـبحانه وتعالى : (وأنزلنا من المساء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون) المؤمنون /١٨.

فكلمـــة (أسكناه) فى الآية مشتقة من " سكن " ، وقد ترجمت بمعنى " ثبّت " ، لكن معناها المباشر " أقررناه " فى الأرض أو جعلناه فى خلالها أى فى باطنها .

وفـــى ضـــوء المعرفة العلمية الحالية ، فإن كلا المعنيين مقبول ، فكما أن مياه المطـــر تتســـلل أو تتخلل التربة ، فيمكنها أيضا أن تصير مياها جوفية حيث يمكن أن تمكـــث بضـــعة أســـابيع أو بضعة آلاف من السنين . وكلمة " سكن " يمكن أن تعنى

أيضـــا " الهـــدوء " أو " الاســـتقرار " ، وأى وصف أفضل من هذا لمياه جوفية تبدو مســـتقرة فى الأعماق المظلمة للأرض دون إزعاج ، وتتحرك بإيقاع بطئ جدا وهادئ ، وفى هذا بيان حقيقة أن المياه الجوفية ذات طاقة أقل من المياه السطحية [٢٦] .

وتعطـــى آيـــة أخـــرى فى القرآن الكريم بيانا واضحا جدا عن أصول الينابيع والأنهـــار ، قال تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض) الزمر /٢١.

فتعبـــير " فســـلكه ينابـــيع " فى الآية مأخوذ من " سلك ونبع " ومعنى " سلكه " أدخلـــه وجعله يمضى ، ومعنى " نبع " تفجر ، ولذا سميت العين ينبوعا . " الينانبيع " القـــنوات والممرات المائية فى باطن الأرض ، أو الثغرات والفتحات التى يتفجر منها الماء ويخرج إلى سطح الأرض فيكون الجداول والأنهار والسواقى والعيون .

ويقـــول المولـــى عـــز وجل : (وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من المساء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) الحجر / ٢٢ .

فمفـــتاح هـــذه الآيـــة هـــو ترتيب إنزال الماء لسقيا الناس على إرسال الرياح " لواقـــح " ، والناس يحملون وصف الرياح باللواقح على أنها لواقح للزرع والشجر ، وهـــذا منهم إغفال للنصف الثانى من الآية ، إذ لو كان ما ذهبوا إليه هو المراد لترتب علـــيه إزكـــاء الزرع وإخراج الثمر ، لا إنزال الماء . أما وقد رتب الله على إرسال الـــرياح لواقـــح إنزال الماء من السماء ، فقد تحتم أن يكون " للواقح " معنى آخر غير معـــنى تلقـــيح الـــزرع ، ويكون مع ذلك شبيها بلقاح الأحياء من زرع وحيوان ، كما يكون بينه وبين نزول الماء صلة ، ما بين العلة والمعلول ، أو السبب والمسبب [٢٧] .

وقـــد بين العلماء أن للكهربائية أثرا فى تكاثف السحاب مطرا ، وأن الرياح لها أثـــر فـــى تمهيد سبل الاتحاد بين كهربائية وكهربائية فى سحاب وسحاب ، إذا تذكرنا ذلـــك علمـــنا أن المراد من وصف الرياح بأنها لواقح ليس هو الإشارة إلى أثرها فى الجمـــع بيـــن طلـــع أعضاء التذكير وبويضات أعضاء التأنيث فى النبات ، ولكن هو الإشارة إلى أثرها فى الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة فى السحاب ،

فالتلقيح هنا هو بين قطيرات وقطيرات ، أو بين سحاب وسحاب ، لا بين زهر وزهر أو نبات ونبات ، والشبه تام بين هذا التلقيح النباتى وذلك التلقيح الكهربائى .

وقد استغل الإنسان منذ أقدم العصور المياه المتوافرة على سطح الأرض سطحية كانت أم جوفية ، واستخدم فى ذلك منشآت مائية مختلفة لا زالت آثارها باقية تدل على قدم راسخة ومعرفة فنية جيدة لحركة المياه وانتقالها على سطح الأرض ، هذا الانتقال والحركة للمياه يدرس فى وقتنا الحاضر تحت عنوان : علم (الهيدرولوجيا) [٢٨] ويقوم هذا العلم على مفهوم رئيسى أساسى هو مفهوم الدورة الهيدرولوجية .

والمقصود بالدورة الهيدرولوجية أن الماء يرسم خلال حركته على سطح الأرض دورة مغلقة بهذا الاسم ، وتتم هذه الحركة بتأثير عاملين اثنين : الطاقة الشمسية الساقطة على سطح الأرض من جهة والثقالة من جهة ثانية ، فبتأثير الأشعة الشمسية تتبخر كميات كبيرة من البحار والمحيطات حيث تتكاثف على شكل سحب وضباب تنتقل بعدها هذه السحائب على سطح الأرض ، وباتجاه اليابسة فى أغلب الأحيان بتأثير التيارات الهوائية وحركة الغلاف الجوى حيث تهطل بسبب عوامل معينة على شكل هطول مطرى أو ثلجى ، تغذى هذه الأمطار والثلوج الأنهار والبحيرات والينابيع والمياه الجوفية . وهذه المياه تعود بدورها إلى البحار والمحيطات من جديد لكى تغلق الدورة المائية .

وتبدو الآيات القرآنية المتعلقة بدورة المياه فى حياة الإنسان لدى قراءة بعضها تلو البعض الآخر فى هذه الأيام معبرة عن أفكار واضحة جدا وذلك ببساطة لأننا أصبحنا فى عصرنا نعرف مع زيادة أو نقص فى الدقة والتحقيق ماهية دورة المياه فى الطبيعة [٢٩] .

وسوف نقسم الآيات الكريمة المتعلقة بموضوعنا إلى قسمين : أولهما يتناول الحلقات الاولى من الدورة الهدرولوجية ، وهى التبخر والانتقال والهطول ، وثانيها : الآيات الدالة على أصل المياه الجوفية والسطحية أو الحلقة الاخيرة من الدورة :

(أ) التـبخر والانتقال والهطول : يقول الله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)[٣٠] .

فالـرياح تبشـر بالمطر ، كما فى قوله تعالى آية أخرى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الـرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ) [٣١] أما المقصود بـ (أقلت سحابا) أى حملت الريح سحابا ثقالا بالماء أى أثقلت بحمله .

– كذلـك يقـول عز وجل : (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ) [٣٢] .

كسـفا : جمـع كسـفة ، وهى القطعة . الودق : المطر ، فالآيات تحمل دلالة واضـحة ويكفى أن نعبر عنها بالصورة المبسطة التالية ليزداد الأمر وضوحا وجلاء (ريـاح مرسلة ، تحمل سحابا ، يساق إلى اليابسة ، فينزل به المطر) . ويلاحظ دقة العـبارة القرآنـية حيث يقول عز وجل : فأنزلنا به الماء . والضمير فى (به) عائد علـى السـحاب ، حيـث أن السحاب هو واسطة لإنزال المطر ويعتبر كمكثف لبخار الماء الذى تحمله الرياح خاصة فى الأمطار الغزيرة [٣٣] .

(ب) التسـرب وأصـل المياه الجوفية والسطحية : ومن الآيات الواردة فى هذا الخصـوص الآيـة التى سبق أن أشرنا إليها والتى يقول فيها سبحانه وتعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) [٣٤] .

ويقـول القرطبى فى تفسير هذه الآية :" هذه الآية من نعم الله تعالى على خلقه ومما امتن به عليهم ، ومن أعظم المنن ، الماء الذى هو حياة الأبدان ونماء الحيوان ، والمـاء المنزل من السماء على قسمين : هذا الذى ذكر الله سبحانه وتعالى وأخبر بأنه اسـتودعه فى الأرض ، وجعله فيها مختزنا لسقى الناس يجدونه عند الحاجة إليه وهو ماء الأنهار والعيون وما يستخرج من الآبار .. وقد قيل أن قوله :" وأنزلنا من السماء مـاء " وما يستخرج من الآبار .. وقد قيل ان قوله : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) إشارة إلى الماء العذب ، وأن أصله من البحر رفعه الله تعالى بلطفه وحسن تقديره من البحر

إلـــى الســـماء حتى طاب بذلك الرفع والتصعيد ، ثم أنزله إلى الأرض لينتفع به ، ولو كان الأمر إلى ماء البحر لما انتفع به من ملوحته " [٣٥].

- كذلـــك قـــال الله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ) [٣٦] .

ويفسر القرطبى هذه الآية أيضا بقوله [٣٧] أن السماء المشار إليها تعنى السحاب والمـــاء المقصـــود به المطر ، أما قوله تعالى " فسلكه " أى أدخله فى الأرض وأسكنه فـــيها ، كمـــا قال (وأسكناه فى الأرض) ، والينبوع عين الماء ، (ثم يخرج به) أى بذلـــك المـــاء الخارج من ينابيع الأرض (زرعه) هو للجنس ، أى زروعا شتى لها ألـــوان مختلفة ، حمرة وصفرة وزرقة وخضرة ، قال الشعبى والضحاك : كل ماء فى الأرض فمن السماء نزل ، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة ، ثم تقسم منها العيون .

ويعلـــق (بوكـــاى) على هذا الموضوع فيقول أننا إذا أخذنا بالاعتبار ما كانت علـــيه مختلف المفاهيم القديمة فى هذا الموضوع ، فإننا نستبين بأن ليس فى المعطيات القرآنية ما يدعم مفاهيم وثنية شائعة ، كان نصيب النظرة الفلسفية فيها أكبر بكثير من نصـــيب الـــتجربة والملاحظة ، ولئن كانوا قد نجحوا فى الماضى تجريبيا بالحصول علـــى معـــارف عملية نافعة فى مستوى محدود لتحسين رى الأراضى ، فقد كان لهم بالمقابل فى دور المياه على العموم أفكار قليلة القبول فى هذه الأيام [٣٨] .

ولأجـــل هذا ، فقد كان يسيرا ، التصور بأن المياه الجوفية يمكن أن تكون ناتجة عـــن تســـرب اندفاعاتهـــا فى باطن الأرض ، ومفهوم Vitruve الذى دافع عن هذه الفكـــرة فى روما فى القرن الأول قبل المسيح يروى كإحدى غرائب العهود القديمة . وهكـــذا فقد كان للناس أثناء قرون طويلة ظهر فيها عصر الوحى القرآنى أفكار خاطئة عن نظام المياه .

ويقـــول تعـــالى أيضا : (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُـــيُونِ) [٣٩] كمـــا يقـــول : (قُـــلْ أَرَأَيْـــتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) [٤٠] .

إن أهمية الينابع وإرفادها بماء المطر السالك إليها المثبتة فى هذه الآيات وغيرها تثير انتباه بوكاى وتجعله يقف ليذكر الأفكار التى كانت منتشرة فى القرون الوسطى فى الغرب كأفكار أرسطو التى يذهب فيها إلى أن الينابيع تتكون من امتدادات البحيرات الجوفية وأن " م. ر . ريمونييراس " الأستاذ فى المدرسة الوطنية للهندسة الريفية للمياه والغابات ، يصف فى مادة (علم المياه) من الموسوعة العالمية أهم المراحل لتكون المياه ويذكر الأعمال الرائعة القديمة للرى وبخاصة فى منطقة الشرق الاوسط وسجل بأنه كانت تتحكم فيها التجارب الفردية ، إذ أن الأفكار كانت ناشئة عن مفاهيم خاطئة . وتابع يقول : وينبغى انتظار النهضة (ما بين ١٤٠٠- ١٦٠٠ تقريبا) لتترك الأفكار الفلسفية المحضة المجال لتجارب مرتكزة على الملاحظة الموضوعية للظواهر المائية . وقد خرج ليونارد دفنشى (١٤٥٢ – ١٥١٩) على ما أثبته أرسطو ، كما أن لبرنارد باليسى تفسيرا دقيقا لدور المياه وبخاصة إمدادات الينابيع بمياه الأمطار فى حديثه الرائع عن طبيعة المياه والينابيع طبيعية أو صناعية [٤١] .

ويتساءل بوكاى : أليس هذا بالضبط ما وجدنا فى الآية (٢١) من سورة الزمر التى تذكر سلوك مياه الأمطار نحو النابيع فى الأرض ؟

وعن الرياح وأثرها تقول الآية ٩ من سورة فاطر (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور) .

إن كلمة " تثير " هنا إشارة إلى أثر الرياح فى تكوين السحاب ، وقد ينصرف ذهن القارئ إلى حمل السحاب من بلد إلى بلد ، لأنه يفترض أن السحاب موجود دائما وليس فى حاجة إلا أن يُحمل ، وحمل الرياح السحاب مهم ، ولكنه مُشار إليه فى الآية بكلمة " فسقناه " ، إذ أينما كان السحاب ، فإن انتقاله أيا كان داخل كله فى معنى السوق ، وإذن لابد أن يكون المعنى المعبر عنه بكلمة " تثير " غير المعنى المستفاد من السوق [٤٢].

وإذا رجعنا إلى القاموس وجدنا من معانى مصدر " ثار " ، السطوع ، وظهور الدم ، وأثاره واستثاره : غيّره ، فمعانى الإثارة المقابلة لهذه المعانى الثلاثة بينها معنى واحد مشترك هو الإظهار ، فالريح إذن تُظهر السحاب بعد خفائه ، ثم يسوقه الله إلى حيث يشاء ، فالإظهار هنا يقصد به التكوين ، أى تسبيب التكاثف .

فإذا تذكرنا أن السحاب هو بخار ماء كان قبل كلمنا فى الهواء غير المشبع ، أو الهواء فوق المشبع الخالى من الأيونات أو الغبار ، ثم ظهر بالتكاثف لمّا انقلبت حالة الهواء من حيث التشبع أو من حيث نسبة الأيونات فيه ، وتذكرنا أن هذا الانقلاب، لا يكون إلا بفعل الريح ، سواء أكان بحملها البخار إلى المناطق العلوية الباردة ، أو بحملها الغبار والأيونات إلى تلك المناطق ، اتضح لنا أن المراد بإثارة الرياح للسحاب هو أثر الرياح فى تكون أو تكوين السحاب لا فى نقله [٤٣] .

مجالات للبحث العلمى :

ويخطئ من يظن أن معنى العلم الذى يُحث عليه فى القرآن يقتصر على المعنى المراد بعلوم الدين فى الوقت الحاضر ، وإنما يمتد ليشمل " جملة المعارف التى يدركها الإنسان بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق من شئ ، ويشمل الخلق هنا ، كل موجود فى هذه الكون ذى حياة أو غير ذى حياة " [٤٤] وهذا المعنى يفهم من هذه الآيات العديدة التى تحض الإنسان على التفكير والدراسة لما فى الكون من مظاهر مختلفة ، مثال ذلك :

- (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرض) [٤٥] .

- (وَفِي الأَرض آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) [٤٦] .

- (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الأَرض كَيْفَ سُطِحَتْ) [٤٧] .

والحكمة من هذا هى حرص القرآن الكريم على عدم الاعتماد على الفطرة وحدها فى الاعتراف بالخالق ، ومن ثم فهو يحرك فى نفوس الناس طلب النظر

والاعتبار . وأن اتباع إرشادات القرآن وأوامره تجعل من الخير كله للمسلم أن يسبح بعقله فى هذا الوجود ، وأن يتطلب المعرفة لإدراك كنه السموات والأرض والإحاطة بهذا النظام الباهر وهذه المعارف هى التى تزيد ايمان المؤمن وتطمئن قلبه (٤٨) .

ومن هنا فقد جاء القرآن بآيات عديدة تحث الإنسان على أن يتناول النبات والفلاحة والرى بالبحث والدراسة ، نسوق منها الأمثلة الآتية .

- (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (٤٩) .

- (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) (٥٠) .

- (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) (٥١) .

- (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأرض كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) (٥٢) .

- (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (٥٣) .

- (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٥٤) .

- (.. وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)" (٥٥) .

- (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٥٦) .

- (.. وَمَـا تَخْـرُجُ مِـنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) (٥٧).

- (وَنَزَّلْـنَا مِـنَ السَّـمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ) (٥٨) .

- (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ . وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) (٥٩) .

- (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ؟ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ. إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) (٦٠) .

- (والتين والزيتون وطور سنين) (٦١) .

- (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً) (٦٢) .

وحقـا كمـا يقـول رشيد رضا ، أن الذى لا يعرف أسرار هذه الكائنات وإنما يـنظر إلـى ظواهرها فيراها كما تراها العجماوات ، فهو لا يفهم معنى كونها آيات ، لأنـه أهمـل آلـة الفهـم التى امتاز بها وهى العقل ، ولذلك أخبر الله تعالى عن هذه الأجـناس كلهـا أن فيها (لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ، فإنهم هم الذين ينظرون فى أسبابها ويدركـون حكمهـا وأسرارها ، ويميزون بين منافعها ومضارها ، ويستدلون بما فيها من الإتقان والأحكام ، والسنن التى قام بها النظام على قدرة مبدعها وحكمته ، وفضله ورحمته ، وعلى استحقاقه للعبادة بدون غيره من بريته ، وبقدر ارتقاء العقل فى العلم والعـرفان يكمـل التوحـيد فى الإيمان ، وإنما يشرك بالله أقل الناس عقلا ، وأكثرهم جهلا (٦٣) .

ولقـد جـنى بعـض العلماء على المسلمين فى الماضى جناية بعيدة الاثر فى حـياتهم ، جناية صرف الناس عن الكون وأسراره ، فهذا لا يتفق وأغراض القرآن ، فضـلا عـن أن هـذه الدراسات ، رفع التعمق فيها أمما من أمم العالم ومكن لها فى الأرض فاسـتولت علـى أمـم تفوقهـا عـددا أو ثـروة واستوت على عروش العز

والسلطان ، وإهمال هذه الدراسات سلب العزة من أمم كانت خليقة بالعز ، بتاريخها ودينها وثروتها [٦٤] .

وعندما بدأ الاحتكاك الثقافى وبدأ دعاة الاصلاح والتطوير يطالبون بتدريس العلوم الحديثة ، قاومهم بعض من يرفعون لواء الدين متناسين أنها بضاعتنا ردت الينا ، ومن هنا كان تساؤل رشيد رضا الاستنكارى : " أليس أكبر خذلان للدين وجناية عليه ألا ينظر المنتسبون إليه فى آياته التى يوجههم كتابه إلى النظر فيها ورشدهم إلى استخراج العبر منها ؟ أليس من أشد المصائب على الملة أن يهجر رؤساء دين كهذا الدين العلوم التى تشرح حكمة الله وآياته فى خلقه ويعدوها مضعفة للدين أو ما حية له خلافا لكتاب الله الذى يستدل لهم بها ويعظم شأن النظر فيها " بلى وانهم ليصرون على تقاليدهم هذه ، وليس عليها حجة ، وإنما اتبعوا فيها سنن قوم قبلهم " [٦٥] .

وقد يزعم بعض هؤلاء الذين يعادون علم الكون باسم الدين أن النظر فى ظواهر هذه الأشياء كاف للاستدلال بها ومعرفة آيات صانعها وحكمته فمثلهم كمثل من يكتفى من الكتاب برؤية جلده الظاهر وشكله من غير معرفة ما أودعه من العلم والحكمة . نعم إن هذا الكون هو كتاب الإبداع الإلهى المفصح عن وجود الله وكماله وجلاله وجماله وإلى هذا الكتاب الإشارة بقوله تعالى : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) [٦٦] . وبقوله : (وَلَوْ إِنمَا فِي الأرض مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) [٦٧] فكلمات الله فى التكوين باعتبار آثارها ومصداقها هى آحاد المخلوقات والمبدعات الالهية ، فإنها تنطق بلسان أفصح من لسان المقال لكن لا يفهمه الذين هم عن السمع معزولون وللعلم معادون ، الواهمون أن معرفة الله تقتبس من الجدليات النظرية والأقسية المنطقية دون الدلائل الوجودية الحقيقية ، ولو كان زعمهم حقيقة لا وهما ، لكان الله سبحانه استدل فى كتابه بالأدلة النظرية الفكرية ، وذكر الدور والتسلسل وغير ذلك من الاصطلاحات الكلامية ، ولم يستدل بالسماء والأرض والليل والنهار والفلك والمطر وتأثيره فى الحياة وغير ذلك من المخلوقات

التى أرشدنا القرآن إلى النظر فيها واستخراج الدلائل والعبر منها : " ألا أن لله كتابين : كـتابا مخلوقا وهو الكون ، وكتابا منزلا وهو القرآن ، وإنما يرشدنا هذا إلى طريق العلم بذاك بما أوتينا من العقل ، فمن أطاع فهو من الفائزين ، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون " (٦٨) .

وسيلة للتعليم :

المتصفح لبعض كتابات المربين يستطيع أن يلحظ بوضوح ميلهم الظاهر لتشبيه العملية التربوية بعملية الفلاحة والزرع فيقولون أن المعلم مثله مثل الزراع وأن التربة مثلها مثل التلميذ وأن الزرع نفسه كمثل ناتج التعلم والتربية ، ومن ثم فكما أن الزراع لابـد له مـن معـرفة طيبة بنوع التربة بحيث لا يضع فيها من البذور إلا ما تتهيأ له كذلـك فالمعلم ينبغى له أن يكون على دراية بطبيعة التلميذ وإلا يلقى له إلا ما يتناسب مع طبيعته من مواد التعليم .. وهكذا .

والدراسـة الفاحصـة للفعـل " رب " توقفنا على الاشتراك الواضح بين النبات والألوهـية والعملـية الـتربوية ، إذ يقـال : ربأت الأرض رباء : زكت وارتفعت . وقـرئ : (فَإذا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) ، أى ارتفعت (٦٩) . وقال الزجاج : ذلـك لأن النبات إذا هم أن ينظر ارتفعت له الأرض . أما " الرب " فهو الله عز وجل هـو رب كـل شئ أى مالكه ، وربيت القوم ، سستهم ، يقول الأنبارى : الرب ينقسم إلـى ثلاثة أقسام : يكون الرب المالك ، ويكون الرب السيد المطاع ، قال الله تعالى : (فَيَسْـقِي رَبَّـهُ خَمْراً) أى سيده ، ويكون الرب : المصلح ، رب الشئ إذا أصلحه ، ورب ولـده ، والصبى يربه ربا ، وربيه تربيبا وتربة (عن اللحيانى) بمعنى رباه ، وفـى الحديـث : لـك نعمـة تربها ، أى تحفظها وتراعيها وتربيها كما يربى الرجل ولده (٧٠) .

ومـن هـنا نجـد حرص القرآن الكريم فى استخدام ما يتصل بالنبات والفلاحة والـرى لا للحديث عنها فى حد ذاتها ، ولا لإعطاء معلومات عن تركيبها وإنما بهدف

إظهـار قيم تربوية وبقصد تعليم الناس أساليب سلوكية ، ولعل الأمثلة التالية توضح لنا هذا بما لا يدع لنا مجالا للشك .

- يقـول تعالى : (وَإِذ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْـرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرض مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّـذِي هُـوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْـكَنَةُ وَبَـاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) [٧١] .

لقـد كـان إلـيهود بيـن الصـحراء بجدبهـا وصخورها ، والسماء بشواظها ورجومهـا ، فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء ، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسـلوى : عسلا وطيرا ، ولكن البنية النفسية المفككة ، والحيلة الهابطة المتداعية ، أبـت علـى القـوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التى من أجلها أخرجوا من مصر ، ومـن أجلهـا ضربوا فى الصحراء . لقد أخرجهم الله – على يدى نبيهم موسى عليه السلام – من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة ، وليرفعهم من المهانة والضعة ، وللحـرية ثمـن وللعـزة تكاليف ، وللأمانة الكبرى التى ناطهم الله بها فدية ولكنهم لا يـريدون أن يـؤدوا الثمن ، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف ولا يريدون أن يدفعوا الفديـة حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشـرابهم ، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة فى طريقهم إلى العزة والحرية والكـرامة . إنهـم يـريدون الأطعمة المنوعة التى ألفوها فى مصر ، يريدون العدس والـثوم والبصـل والقثاء .. وما إليها . وهذا ما يذكرهم القرآن به ، وهم يدعون فى المديـنة دعواهـم العريضـة الـتى فى الآية [٧٢] وقد تلقى موسى عليه السلام طلبهم بالاستنكار :

(أَتَسْـتَبْدِلُونَ الَّـذِي هُـوَ أَدْنَـى بِـالَّذِي هُـوَ خَيْرٌ ؟ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ).

إمـــا بمعـــني أن ما يطلبونه زهيد وهين لا يستحق الدعاء ، فهو موفور فى أى مصـــر من الأمصار فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها .. وإما بمعنى : عودوا إلى مصـــر التى أخرجتم منها .. عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة ، إلى حياتكم الخانقة الذلـــيلة .. حيـــث تجـــدون العدس والبصل والثوم والقثاء ! ودعوا الأمور الكبار التى ندبتم لها .. ويكون هذا من موسى عليه السلام تأنيبا وتوبيخا ..

ونحن نرجح مع سيد قطب هذا التأويل الذى استبعده بعض المفسرين ، نرجحه بســـبب مـــا أعقبه من السياق من قوله تعالى (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَـــبٍ مِنَ اللَّهِ) ، فان ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، وعودتهم بغضب الله ، لم يكن مـــن الناحـــية التاريخية – فى هذه المرحلة من تاريخهم ، وإنما كان فيما بعد وقو ع ما ذكـــرته الآيـــة فـــى ختامها (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَـــقِّ ذَلِـــكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) ، وقد وقع هذا منهم متأخرا بعد عهد موسى بأجـــيال ، إنمـــا عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبة لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء فناسب أن يكون قول موسى لهم (اهبطوا مصرا) هـــو تذكيرهم بالذل فى مصر ، وبالنجاة منه ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التى ألفوها فى دار الذل والهوان [٧٣] .

– ويقـــول تعالى : (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُســـهِمْ كَمَـــثَلِ جَـــنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [٧٤] .

لقد هدانا الله هنا إلى أن نقصد بأعمالنا أمرين :

أولهما : ابتغاء رضوانه لذاته تعبدا له .

وثانـــيهما : تزكـــية أنفســـنا وتطهـــيرها من الشوائب التى تعوقها عن الكمال ، كالـــبخل والمـــبالغة فـــى حب المال ، على أن هذا وسيلة لذلك وفائدة كل من الأمرين عائدة علينا والله غنى عن العالمين .

وقد عرف بالاختيار أن الأرض الجيدة فى المواقع المعتدلة يكفيها القليل من الرى لرطوبة ثراها وجودة هوائها ، فإن الشجر يتغذى من كما يتغذى من الأرض ، ووجه الشبه عندنا أن المتفق ابتغاء مرضاة الله والتثبت من نفسه ، هو إخلاص وسخاء نفسه وإخلاص قلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر العظيمة الخصب فى كثرة بره وحسنه فهو يجود بقدر سعته ، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الإنفاق ، وإن أصابه خير قال أنفق منه بقدره ، فخيره دائم وبره لا ينقطع ، لأن الباعث عليه ذاتى لاعرضى كأهل الرياء وأصحاب المن والإيذاء [٧٥] .

ويـنقل رشيد رضا عن محمد عبده فى شرحه للآية : أن النية الصالحة فى الإنفاق كالوابل للجنة فيها تكون النفقة نافعة للناس لأن أصحابها يتحرون فيضعون نفقتهم موضع الحاجة لا يبذرون بغير روية . ثم قال عند ذكر الطل : أى أن أمثال هؤلاء المخلصين لا يخيب قاصدهم لأن رحمة قلوبهم لا يغور معينها ، إن لم تصبه بوابل من عطائها لم يفنه طله فهم كالجنة التى لا يخشى عليها اليبس والزوال ، وقد ختم الآية بقوله عز وجل (والله بما تعملون بصير) ليذكرنا بأنه لا يخفى عليه المخلص من المرائى تحذيرا لنا من الرياء الذى يتوهم صاحبه أنه يغش الناس بإظهاره خلاف ما يضمر فكأنه يقول : إن الله لا يخفى عليه ما تنطوى عليه سريرتك أيها المنفق فعليك أن تخلص له [٧٦] .

والقرآن الكريم يعتمد على هذا التقابل المتناظر بين العالمين لكى يضرب بدنيا النبات الأمثال فيمنحنا – بذلك – المزيد من التعاليم الحية المؤثرة مما نشهده فى هذا العالم الطريف [٧٧] .. عطاء المنافقين وعطاء المؤمنين ، هنا كأرض صخرية مغطاة بطبقة دقيقة زائقة من التراب لا يزيدها المطر إلا تعرية وقفرا .. وهذه رواب خصبته واعدة يعينها المطر على المزيد من التدفق .. والمنح .

(.. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْإِذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)[٧٨] .

الكلمـــة الطيـــبة والكلمة الخبيثة .. هذه تزهو وتسمن وتمنح .. وتلك كومة من أعجـــاز خاويـــة لا جـــذور لها فى الأرض ولا تمنح شيئا .. والكلمة (فعل) والتزام ومسئولية .. ومن ثم تعرف كيف يكون مردود هذا الفرق الحاسم بين الطيب والخبيث فـــى مواقـــف الإنسان وفى تاريخه على السواء . (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّـــبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْـــرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ) [٧٩] .

وثمـــة لقطة متشابهة ولكن الضوء مسلط هنا على الجماعة . وكان هناك مسلطا علـــى الكلمـــة والأمـــر سواء ! (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) [٨٠] .

وحـــركات الإيمـــان فـــى العـــالم التى جاء الأنبياء عليهم السلام لكى ينظموها ويـــنطلقوا بهـــا لتغيير العالم ، كانت تبدأ دائما بداية بسيطة ، ضعيفة .. قلة محاصرة وســـط أكـــثريات ساحقة تسعى لتدميرها ، ولكنها ما لبثت – بإرادة الله – أن تستوى علـــى سوقها وأن تأخذ الزمام وتتحكم فى التاريخ .. وليس أروع من الزرع مثلا لهذا الـــنحو الجـــرئ الـــذى يـــبدأ ضـــعيفا هشـــا ثم ينتهى إلى الرسوخ فى أعماق النفس والعالم [٨١] ..ومن ثم يصف القرآن المؤمنين بأن (.. وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)[٨٢] .

– ويقول تعالى : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْـــنَاهُمَا بِـــنَخْلٍ وَجَعَلْـــنَا بَيْـــنَهُمَا زَرْعاً كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّـــرْنَا خِلالَهُمَـــا نَهَراً . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَـــزُّ نَفَـــراً . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً) [٨٣] .

فها هنا نجد أن الله سبحانه وتعالى فى هذه الصورة الفنية الرائعة يريد أن يتيقن الـــناس عن طريق الأمثلة والشواهد أن الذى يغره غناه فيحيد عن الطريق السوى لابد

أن يسلط الله عليه ، ما يذهب بأسباب الغرور وعوامله . ويختار سبحانه عز وجل كمظهر من مظاهر الغنى أن يكون للإنسان حدائق ومزارع وبساتين بها الأنهار الجارية والثمار اليانعة ، وإذا كانت هناك مظاهر أخرى للغنى إلا أنه ركز على هذا المظهر بالذات لأن الذين يقرءونه ويسمعونه أولا وهم عرب الجزيرة يعيشون بيئة يقل فيها هذا المظهر ، فالصحراء تحيط بهم من كل جانب والمياه شحيحة ومن ثم فلربما فاق نهر صغير أو بستان متواضع قيمة أموال ضعف ثمنه فى مناطق أخرى .

لقد كان لصاحب هاتين الجنتين ثمر كثير أثمرته جنتاه ومزرعته ومواشيه التى تعيش فى المزرعة وأموالها مثمرة غير معطلة فكل نعيم الدنيا قد منحه فما الذى ينتظر من مثل هذا ؟ قال لصاحبه وأخيه المؤمن وهو يراجعه فى الكلام ويحادثه مفاخرا بنعمته : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . مالى أكثر من مالك وعشيرتى وخدمى وحشمى تشد من أزرى وتجعلنى فى عزة ومنعة . طغى المغرور وبغى ما صنع كسر قلوب الفقراء وافتخر بماله وعشيرته (٨٤) .

وهو إذ ينظر تيها وإعجابا بما تحويه الجنتان يقع فى وهم عظيم : فمن أين يأتيها الدمار والبوار ؟ وهكذا تجر الغفلة إلى غفلات وتصبح نفسه معتمه مغلفة بأغلفة سوداء تمنعه من الاستفادة بنور العلم والإيمان ، ثم يسترسل فيقول : " وما أظن القيامة آتية كما تدعى أيها الأخ ، ولو فرضنا جدلا أنها قائمة وأقسم : لئن رددت إلى ربى لأجدن عنده جنة خيرا منها أرجع إليها وأعيش فيها منعما كما أعيش فى الدنيا ..."

هذا كلام من طغى وبغى .

ولكن الله العزيز القدير لم يلبث أن أرسل على جنتيه صواعق من السماء فدمرت وأصبحت أرضا جرداء ملساء لا ثمر ولا شجر ولا زرع ولا ضرع ، فصار يقلب كفيه نادما ومتحسرا على ما ضاع منه من أموال أنفقها فى عمارتها وزراعتها وصيانتها !!

.. وفيها منافع للناس :

إن عـالم الـزراعة يغطـى بعطائـه الزاخـر السخى حاجات بنى آدم المادية ومطـامحهم الروحـية على السواء .. والقرآن يشير إلى هذا وذاك ، فهو يعرض فى أكـثر من موضع لأهمية النبات القصوى والماء كمادة للحياة البشرية : طعاماً وتدفئة ولباسا ، ويدعو بنى آدم إلى الأفادة من هذه المنحة الآلهية لاشباع ضروراتهم .

١- (وَظَلَّلْـنَا عَلَـيْكُمُ الْغَمَـامَ وَأَنْزَلْـنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) (٨٥).

٢- (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ ..) (٨٦) .

٣- (إِنمـا مَـثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرض مِمَّـا يَـأْكُلُ الـنَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَـادِرُونَ عَلَـيْهَا أَتَاهَـا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٨٧).

٤- (اللَّـهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار) (٨٨) .

٥ - (قَـالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَـأْكُلُونَ.)ثُـمَّ يَأْتِـي مِـنْ بَعْـدِ ذَلِـكَ سَـبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ) (٨٩) .

٦- (وَالأرض مَدَدْنَاهَـا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ . وَجَعَلْـنَا لَكُـمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ . وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) (٩٠) .

٧- (هُــوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِــتُ لَكُــمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[٩١].

٨- (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٩٢] .

٩- (فَأَنْشَــأْنَا لَكُــمْ بِــهِ جَــنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وشجرة تخرج من طور سناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين) [٩٣] .

١٠- (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلى الأرض الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ) [٩٤] .

١١- (لَقَــدْ كَــانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُــمْ وَاشْــكُرُوا لَــهُ بَلْــدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ؟ [٩٥] .

١٢- (وَآيَــةٌ لَهُــمُ الأرض الْمَيْــتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْــنَا فِــيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَــتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ؟ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرض وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ)[٩٦] .

١٣- (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)[٩٧] .

١٤- (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ؟ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ؟ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)[٩٨] .

١٥- (أَفَلْيَــنْظُرِ الإنســان إلى طَعَامِهِ ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ، ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَــقّاً ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ، وَعِنَباً وَقَضْباً ، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ، وَحَدَائِقَ غُلْباً ، وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ، مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) [٩٩] .

وبدراسة هذه الآيات ، نجد جملة فوائد للنبات والمياه وما يتصل بها من عمل الفلاحة كما يأتى:

* فإذا كان الله سبحانه وتعالى يشير إلى بنى إسرائيل فى الآية الأولى ، إلا أن هذه الإشارة تتضمن نعمة إلهية عندما تتكاثف السحب فى بعض الفترات فى المناطق الصحراوية . ففضلا عما قد تبشر به من سقوط الأمطار ، فهى تظلل الناس وتحميهم من لهيب الشمس .

* وإذا كانت الزروع تفيد كمادة للأكل ، فبعضها يفيد كمعروشات كما ترى فى الآية الثانية مثل الكرم ، فمنه ما يعرش ومنه ما يترك متبسطا على الأرض ، وكله من جنس المعروشات التى أودع الله فيها خاصية التسلق والاستمساك بما تتسلق عليه من عريش مصنوع أو شجر أو جدار ونحوه .

وقد كرر عز وجل بما يلفت النظر ، أهمية الظلال ، ودورها فى توفير الراحة للبشر ، فهى ليست نعمة فى الدنيا فقط ، بل وفى الآخرة كذلك ، فهو يجعل للظلال فضلا كفضل البصر والنور كما فى قوله تعالى (وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ،ولا الظل ولا الحرور) فاطر / ١٩-٢٠

وحينما يصف المولى سبحانه وتعالى بعض نعم الجنة يقول جل شأنه (فى سدر مخضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة) الواقعة/ ٢٨-٣٣

وحينما تحدث الله تبارك وتعالى عما يصيبه أصحاب الجنة من الخير قال : (. . . لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا) النساء / ٥٧

أما عن الظلال كأحد أوصاف الجنة ، فيقول الله تعالى فى ذلك (تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ٠٠٠) الرعد / ٣٥ ، ويقول كذلك (هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) يس / ٥٦ ، ومن هنا يبرز السؤال : أليس من يمنع الحياة علن الأشجار والنباتات التى يتوفر لها الظل والخير إنما يرتكب جريمة فى حق البشر ويتنكر لنعمة من نعم الله ؟ (١٠٠) .

أو لـــيس التلويث الذى يحول دون سلامة الأشجار والنباتات هو قضاء على مصدر الغذاء والظلال وحرمان للناس منهما ؟

* كذلـــك يشـــير سبحانه وتعالى فى الآية الثانية من القائمة ، وفى كثير غيرها إلـــى " أكل الثمار " ، والأمر هنا للإباحة أى بعد أن إذن الله تعالى عباده بأنه هو الذى أنشـــأ لهـــم ما فى الأرض من الشجر والنبات الذى يستغنون منه أقواتهم ، إذنهم بأنه أباحـــه لهم كله وليس لأحد غيره أن يحرم شيئا منه عليهم إلا لعلة قاهرة كما فى حالة المـــرض مثلا [١٠١] . وقوله (إذا أثمر) لإفادة أن أول وقت إباحة الأكل وقت اطلاع الشـــجر الـــثمر والزرع الحب لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع ، فالكرم ينتفع بـــثمره حصـــرما فعنبا فزبيبا . والنخل يؤكل ثمره بسرا فرطبا فتمرا . والقمح يؤكل حبه فريكا قبل يبسه وأكله برا مطبوخا أو طحنه وجعله خبزا .

*وفـــى الآية الخامسة نجد تلك الحقيقة التى تتأكد فى عديد من الآيات ، الزرع هـــو مـــورد الرزق الأول ، ومصدر النعمة الظاهر ، والمطر والإنبات ، كلاهما يتبع الســـنة الـــتى فطـــر الله علـــيها هذا الكون ، ويتبع الناموس الذى يسمح بنزول المطر وإنبات وخروج الثمر ، وموافقة هذا كله للانسان ، وإنبات حبة واحدة يحتاج إلى القوة المهيمـــنة على هذا الكون كله لتسخر أجرامه وظواهره فى إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامـــل الحـــياة من تربة وماء وأشعة وهواء .. والناس يسمعون كلمة (الرزق) فلا يتـــبادر إلـــى إذهانهم إلا صورة الكسب للمال . ولكن مدلول " الرزق " أوسع من ذلك كثـــيرا ، وأعمـــق . إن أقـــل " رزق " يرزقه الكائن الإنسانى فى هذا الكون يقتضى تحـــريك أجـــرام هـــذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتواكبة المتناقســـة التى لولاها ، لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود ، ولم تكن له بعد وجود حياة وامـــتداد . ويكفى ما ذكر فى هذه الآيات من تسخير الأجرام والظواهر ليدرك الإنسان كيف هو مكفول محمول بيد الله ... وسخر لكم الأنهار تجرى فتجرى الحياة ، وتفيض فيفـــيض الخـــير ، وتحمـــل ما تحمل فى جوفها من أسمك وأعشاب وخيرات .. كلها للإنسان ولما يستخدمه الإنسان من طير وحيوان [١٠٢] .

•وفـــى الآيـــة الســـابعة تركيز القول على نعمة الماء الذى يأتى به المطر وفق النوامـــيس التى خلقها الله فى هذا الكون . هذا الماء يذكر هنا كنعمة من نعم الله " لكم مـــنه شـــراب " ، فهى خصوصية الشراب التى تبرز فى هذا المجال ، ثم خصوصية المـــرعى " ومنه شجر فيه تسيمون " . وهى المراعى التى تربون فيها السوائم ، ذلك بمناســـبة ذكر الأنعام قبلها وتنسيقا للجو العام بين المراعى والأنعام ، ثم الزروع التى يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار .

•وفى الآية العاشرة ، يشير سبحانه إلى الأرض البور وكيف يمكن استصلاحها بالرى فهذه الأرض الميتة البور ، يرون أن يد الله تسوق إليها الماء المحيى ، فإذا هى خضـــراء ممـــرعة بالزرع النابض بالحياة ، الزرع الذى تأكل منه أنعامهم وتأكل منه أنفســـهم ، وإن مشـــهد الأرض المجدبة فإذا هى خضراء ، إن هذا المشهد ليفتح نوافذ القلـــب المغلقـــة لاســـتجلاء هـــذه الحياة النامية واستقبالها ، والشعور بحلاوة الحياة ، والإحســـاس بواهـــب هذه الحياة الجميلة الناضرة ، إحساس حب وقربى وانعطاف مع الشـــعور بـــالقدرة المـــبدعة والـــيد الصـــناع التى تشيع الحياة والجمال فى صفحات الوجود [١٠٣] .

وقريب من هذا ما نراه فى الآية الثانية عشر .

• أما فى الآية الثالثة عشر ، فهناك نقف على قيمة أخرى للنبات بالإضافة إلى فوائـــده الســـابقة كظـــل ، وكطعـــام للإنسان وللحيوان والطير التى هى مسخرة كذلك للإنســـان ، تلك القيمة التى تتمثل فى كونه مصدرا من مصادر الطاقة وخاصة عندما يجـــف ، فيستخدمه الناس لإشعال النار التى بها يحتمون من برد الشتاء ، وبها يطهون طعامهم .

•ولكـــنه ســـبحانه لا يقـــف عند هذا الجانب وحده ، بل يتجاوز إلى الوجه الجمـــالى لعـــالم الزراعة ، وهل أقدر من هذا العالم على منح الحياة وجهها الجميل ؟ هل أقدر منه على وضع (الديكور) الباهر على واجهة العالم ، وتلوينه وتزيينه ؟ إن الخضـــرة هـــى بحـــد ذاتها (جمالا خالصا) أرادت بها يد الله المبدعة أن تزين هذا

الوجـــود .. وحتى صنوف النبات الأخرى التى تحمل الثمر للناس تتزين هى الأخرى وتســـهم فـــى إغـــناء هذا المهرجان المفتون . إنها عملة ذات وجهين .. الضرورة .. نعـــم ، ولكن لابد من الجمال مع الضرورة ، فهذا هو أحد الملامح الأساسية التى تميز بـــنى آدم عمـــن دونهم من الخلائق : الإحساس بالجمال والتشوف إليه [١٠٤] ، ولنتأمل معا هذه الآيات الكريمة :

- (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا [١٠٥] .

- (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) [١٠٦] .

- (وَنَزَّلْـــنَا مِـــنَ السَّـــمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)[١٠٧] .

- (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ .وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) [١٠٨] .

- (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً) [١٠٩] .

- (وَهُـــوَ الَّـــذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِـــراً نُخْـــرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْـــتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[١١٠] .

-(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)[١١١] .

الألفاظ الخاصة بالنبات والفلاحة والرى بالقرآن :

ولعلـــه مـــن المفيد هنا أن نقوم بعملية حصر لمجمل الألفاظ والكلمات الخاصة بموضوعنا ومدى فى آيات القرآن الكريم :

١- الألفاظ الخاصة بالرى والفلاحة :

- أثمر : جاءت مرتان فى سورة الأنعام ، الآية ٩٩ ، الآية ١٤١

- الإنـــبات : جـــاءت بمعنى تنبت مرة فى سورة المؤمنون ، آية ٢٠، وبمعنى أنبتـــت مرتان : واحدة فى سورة البقرة ، آية ٢٦١ ، وأخرى فى سورة الحج آية ٥ .

وبمعنى أنبتكم نباتا مرة فى سورة نوح الآية ١٧ ، وبمعنى أنبتنا ثمان مرات . الحجر ، آية ١٩ ، الشعراء آية ٧ ، النمل آية ٦٠ ، لقمان ، آية ١٠ ، الصافات ، آية ١٤٦ ، ق . آية ٧و ٩ ، عيسى آية ٢٧ ، وبمعنى أنبتها مرة فى آل عمران ، آية ٣٧ ، وبمعنى تنبت مرتان فى سورة البقرة ، آية ٦١ ، يس ، آية ٣٦ ، وبمعنى تنبتوا مرة فى سورة النمل ، آية ٦٠ ، وبمعنى ينبت فى سورة النحل ، آية ١١ .

- بئر : مرة واحدة فى سورة البقرة ، آية ١٠٢ .

- الحصاد : بمعنى حصدتم ، جاءت مرة فى سورة يوسف ، آية ٤٧ وبمعنى حصاده مرة فى سورة الأنعام ، آية ١٤١ ، وبمعنى حصيد ، مرتان ، واحدة فى سورة هود ، آية ١٠٠ ، وسورة ق ، آية ٩ ، وبمعنى حصيدا مرتان : إحداهما فى سورة يونس آية ٢٤ ، وأخرى فى سورة الأنبياء ، آية ١٥ .

- ربت : جاءت مرتان ، إحداهما فى الحج ، آية ٥ ، والأخرى فى فصلت آية ٣٩ .

- الزراعة : جاءت مادتها فى عدة سور ، منها : تزرعون مرة فى يوسف ، آية ٤٧- ، تزرعونه ، مرة فى الواقعة آية ٦٤ - الزارعون ، مرة فى الواقعة ٦٤ - الزراع ، مرة فى الفتح آية ٢٩ .

- السقى : بمعنى رى الأرض ، جاءت مرتين ، واحدة فى سورة الرعد ، آية ١٣ ، والأخرى فى سورة الفرقان ، آية ٤٩ . وقد ترددت مرات عدة ولكن بمعنى سقاية الإنسان والأنعام فى أغلب المواضع .

- الطين : وردت عدة مرات ، ولكن بمعنى المادة الأولى التى خلق منها الإنسان (١١ مرة) و (طينا) مرة واحدة .

- العيون : كمصادر للرى وردت (٩) مرات : الحجر - ٤٥ ، الشعراء - ٥٧- ١٣٤-١٤٧ ، يس - ٣٤ ، الدخان - ٣٥- ٥٢ ، الذاريات - ١٥ ، المرسلات - ٤١ ، و(عيونا) ، فى سورة القمر -١٢ .

- الفلاحـــة : جـــاءت فـــى مواضع عدة ، وفى صور شتى ، ولكن لا بمعنى الـــزراعة ، بـــل بمعنى النجاح والتوفيق والإصابة فى الفعل والبصر السليم بالطريق المستقيم .

- المطـــر : جـــاءت المادة الخاصة به فى صورة (أمطرنا) خمس مرات فى سورة الأعراف – ٨٤ ، هود ٨٢ ، الحجر – ٧٤ ، الشعراء – ١٧٣، النمل – ٥٨ ، الأنفـــال – ٣٢. وفـــى صورة (فأمطر) مرة واحدة فى الفرقان – ٤٠ ، وفى صورة (مطـــر) أربـــع مرات فى سورة النساء ١٠٢ ، الفرقان – ٤٠ ، الشعراء – ١٧٣ ، النمل –٥٨ . وفى صورة (مطرا) ثلاث مرات بسور الأعراف – ٨٤ ، الشعراء – ١٧٣ ، النمل ٥٨ . وفى صورة (ممطرنا) مرة فى سورة الأحقاف – ٢٤.

- الأنهـــار : جـــاءت مادتهـــا فى صورة (نهر) مرتان بسورة البقرة ٢٤٩ ، وسورة القمر – ٥٤ وفى صورة (نهرا) بسورة الكهف – ٣٣، وفى صورة (الأنهار) ٤٧ مـــرة فى سورة البقرة ٢٥-٧٤، ٢٦٦ ، آل عمران – ١٥ ، ١٣٦ – ١٩٥-١٩٨ ، النساء – ١٣-٥٧-١٢٢، المائدة -١٢-٨٥-١١٩ ، الأنعام -٦ ، الأعراف -٤٣ ، الـــتوبة -٧٢ -٨٩-١٠٠ ، يونس -٩ ، الرعد -٣٥ ، إبراهيم -٢٣-٣٢ ، النحل – ٣١، الإســـراء -٩١، الكهـــف -٣١، طـــه -٧٦ ، الحج -١٤-٢٣، الفرقان -١٠ ، العنكـــبوت -٥٨، الزمـــر -٢٠الزخـــرف – ٥١ ، محمد ١٢-١٥ ، الفتح -٥-١٧ ، الحديد ١٢ ، المجادلة -٢٢، الصف ١٢، التغابن -٩ ، الطلاق -١١ ، التحريم -٨ ، الـــبروج -١١ البيـــنة -٨ ، وفـــى صورة (أنهارا) أربع مرات فى سور الرعد -٣، النحل -١٥، النمل ٦١ ، نوح -١٢ .

- الينابـــيع : كمصدر للرى جاءت مرة فى سورة الزمر -٢١ و (ينبوعا) فى سورة الاسراء -٩٠.

- الحـــرث : جاءت مادته فى صورة (تحرثون) مرة واحدة فى سورة الواقعة – ٦٣، وفـــى صـــورة (حـــرث) ٩ مرات بالمعنى المتداول فى عالم الزراعة ، فى

سـورة البقرة -٢٠٥،٧١ ، وآل عمران -١٤-١١٧، الأنعام -١٣٦-١٣٨ ، الأنبياء -٧٨ ، الشورى -٢٠.

٢- الألفاظ والكلمات الخاصة بالنبات :

- بصل : وردت مرة واحدة فى سورة البقرة -٦١.

- بقل : وردت مرة واحدة فى سورة البقرة -٦١.

- تين : وردت مرة واحدة فى سورة التين -١ .

- حدائق : وردت ثلاث مرات ، فى النمل -٦٠ ، النبأ - ٣٢، عبس -٣٠ .

- رطب : وردت مرة واحدة فى مريم -٢٥.

- رمان : وردت ثلاث مرات ، فى الأنعام -٩٩-١٤١، الرحمن ٦٨.

- الريحان : وردت مرتان ، فى الرحمن -١٢ ، الواقعة -٨٩.

- زرع : وردت خمس مرات ، فى الأنعام -١٤١ ، الرعد -٤، ابراهيم -٣٧ ، النحل -١١ ، الفتح -٢٩ . ووردت كلمة (زروع) مرتان ، فى الشعراء -١٤٨ ، الدخان -٢٦ وكلمة (زرعا) ثلاث مرات ، فى الكهف - ٣٢ ، السجدة -٢٧ ، الزمر -٢١ .

- زيتون : وردت أربع مرات ، فى الأنعام -٩٩-١٤١ ، النحل -١١، التين -١ ، وكلمة (زيتونا) مرة واحدة فى عبس -٢٩.

- شجر : وردت مرة واحدة فى النساء - ٦٥ ، وكلمة (الشجر) ست مرات ، فى النحل -١٠-٦٨-١٨ ، يس -٨٠ ، الرحمن -٦ ، الواقعة -٥٢ ، وكلمة (شجرها) مرة واحدة فى النمل - ٦٠ وكلمة (الشجرة) ١٨ مرة ، فى البقرة - ٢ ، الأعراف -١٩-٢٠-٢٢ ، إبراهيم -٢٤-٢٦الإسراء -٦٠ ، طه -١٢٠ ، المؤمنون -٢٠ ، النور -٣٥، القصص - ٣٠ ، لقمان ٢٧ ، الصافات -٦٢-٦٤-١٤٦ ، الدخان -٤٣ ، الفتح -٧٢ ، وكلمة (شجرتها) مرة واحدة فى الواقعة -٧٢ .

- فاكهـــة وردت ١١ مـــرة ، فى يس -٥٧ ، ص -٥١ ، الزخرف -٧٣ ، الدخان -٥٥ ، الطور ٢٢ ، الرحمن -١١-٥٢-٦٨، الواقعة ٢٠-٣٢، عبس -٣١ ، وكلمـــة (فـــواكه) ثـــلاث مـــرات ، فـــى المؤمـــنون -١٩، الصـــافات ، ٤٢، المرسلات -٤٢.

- ثـــوم : قال ابن جنى ، ذهب بعض المفسرين إلى أنه تعالى أراد (الثوم) ، والصواب عنده : الحنطة [١١٢] . وقد وردت مرة واحدة فى سورة البقرة -٦١ .

- قثاء : وردت مرة واحدة فى سورة البقرة -٦١.

- عدس : وردت مرة واحدة فى سورة البقرة -٦١.

- عـــنب : وردت مـــرة واحدة فى سورة الإسراء -٩١ ، وكلمة (عنبا) مرة واحـــدة فـــى ســـورة عـــبس - ٢٨، وكلمة (أعناب) ٨ مرات ، فى البقرة - ٢٦٦، الأنعـــام -٩٩ ، الـــرعد -٤ ، الـــنحل -١١-٦٧، الكهـــف -٣٢، المؤمنون -١٩، يس -٣٤ . وكلمة (أعنابا) وردت مرة واحدة فى النبأ - ٣٢.

- نخـــل : وردت كلمـــة (الـــنخل) ١٠ مـــرات فى : الأنعام -٩٩-١٤١، الكهـــف -٣٢، طه -٧١ ، الشعراء ١٤٨، ق -١٠ ، القمر -٢٠ ، الرحمن -١١ ، الحاقـــة -٧ ، وكلمة (نخلا) مرة واحدة فى عبس - ٢٩، وكلمة (النخلة) مرتان فى مـــريم - ٢٣-٢٥ . وكلمة (نخيل) ٧ مرات فى البقرة -٢٦٦ ، الرعد -٤ ، النحل -١١-٦٧ ، الإسراء -٩٠ المؤمنون -١٩، يس -٣٤ [١١٣] .

الهوامش

١- عبد الحليم الجندى : القرآن والمنهج العلمى المعاصر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٤ ، ص ٤١

٢- زغلـــول الـــنجار : النبات فى القرآن الكريم ، القاهرة ، مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٤ ، ص ٥٣

٣- كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ص ٤٥ .

٤- المرجع السابق : ص ٤٨ .

٥- المرجع السابق : ص ٨٧٣ .

٦- المرجع السابق : ص ٨٧٤ .

٧- المرجع السابق : نفس الصفحة .

٨- البقرة ، ١٦٤.

٩- سيد قطب : فى ظلال القرآن ، جـــ ١١ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، م١ ، جـــ٢ ، ص ١٥٣ .

١٠- المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

١١- زغلول النجار ، ص ١٩٢

١٢- الرعد ، ٤.

١٣- محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الكريم المسمى تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ ، جـــ٢ ، ص ٥١ .

١٤- المرجع السابق ، جـــ٣ ، ص ٢٢ -٢٤.

١٥- سورة الملك ، ٢.

١٦- بوكـــاى (موريس) : التوراة والإنجيل والقرآن والعلم . ترجمة نخبة من الدعاة ، دار الكندى ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٦٦.

١٧- طه / ٥٣.

١٨- الحج /٥.

١٩- لقمان /١٠.

٢٠- الرعد /٣ .

٢١- بوكاى ، ص ١٦٦.

٢٢- الأنعام / ٩٥ .

٢٣- يس / ٣٦.

٢٤- الزمر /٢١.

٢٥- القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، ج١٢ ، ص ٢٨٨

٢٦- هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة : إعجاز القرآن الكريم فى وصف الرياح والسحاب والمطر ، مكة المكرمة ، رابطة العالم الإسلامى ، ١٤٢٢هـ ، ص ١٠٧

٢٧- أحمد عبد السلام الكردانى (إعداد وتقديم عن كتابات محمد أحمد الغمراوى) : نماذج من الإعجاز العلمى للقرآن ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧٨ ، ص ٧٥

٢٨- جلال الدين خانجى : القرآن والدورة الهيدرلوجية ، المجلة العربية ، الرياض ، السنة الثانية ، العددان ١٠ - ١١ ، شعبان - رمضان (يوليو /أغسطس) ١٩٧٨ ، ص ١٧٤

٢٩- بوكاى ، ص ١٥٥.

٣٠- الأعراف /٥٧.

٣١- الروم /٤٦.

٣٢- الروم/ ٤٨.

٣٣- جلال الدين خانجى ، ص ١٧٦.

٣٤- المؤمنون /١٨.

٣٥- القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٤٥٠٤.

٣٦- الزمر / ٢١.

٣٧- القرطبى ، ص ٥٦٩٠.

٣٨- بوكاى ، ص ١٥٥.

٣٩- يس / ٣٤.

٤٠- الملك/٣٠.

٤١- بوكاى. ص ١٥٧.

٤٢- الكردانى ، ص ٧٣

٤٣- المرجع السابق ، ص ٧٤

٤٤- عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية ، دار القلم ، ط١ ، د.ت، ص ٨٥ .

٤٥- سبأ /٩.

٤٦- الذاريات /٢٠-٢١.

٤٧- الغاشية /١٧-٢٠.

٤٨- سعيد إسماعيل علي : ديمقراطية التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٧٤.

٤٩- الأنعام / ٩٩.

٥٠- الأنعام / ٩٥.

٥١- النحل / ٦٥.

٥٢- الشعراء / ٧.

٥٣- العنكبوت / ٦٣ .

٥٤- الروم / ٥٠.

٥٥- لقمان / ١٠.

٥٦- فصلت / ٣٩.

٥٧- فصلت / ٤٧.

٥٨- ق / ٩- ١٠.

٥٩- الرحمن /١١-١٢.

٦٠- الواقعة /٦٣ - ٦٧.

٦١- التين / ١-٢.

٦٢- النبأ / ١٥ -١٦.
٦٣- تفسير المنار ، حـ٢ ، ٥٢.
٦٤- محمـد مصطفى المراغى : حديث رمضان ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، العدد ١٤ ، مايو ١٩٥٢ ، ص ١٢ -١٣.
٦٥- تفسير المنار ، حـ٢ ، ص ٥٢.
٦٦- الكهف / ١٠٩.
٦٧- لقمان /٢٧.
٦٨- تفسير المنار ، حـ٢ ، ص ٥٣.
٦٩- ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، د.ب، م٣ ، ص ١٥٤٦.
٧٠- المرجع السابق ، ص ٦٥٤٧.
٧١- البقرة / أية ٦١.
٧٢- فى ظلال القرآن ، جـ١ ، ص ٧٤.
٧٣- المرجع السابق ، ص ٧٥.
٧٤- البقرة / أية ٢٦٥.
٧٥- تفسير المنار ، حـ٣ ، ص ٥٨ .
٧٦- المرجع السابق ، نفس الصفحة .
٧٧- عماد الدين خليل : رحلة مع دنيا النبات فى كتاب الله ، مجلة العربى ، الكويت ، السنة ٢١ ، العدد ٢٤٢ ، يناير ١٩٧٩ ، ص ٢٦ ، ٢٧ .
٧٨- البقرة / أية ٢٦٤.
٧٩- إبراهيم / الآيات من ٢٤ – ٢٦ .
٨٠- الأعراف / آية ٥٨
٨١- رحلة مع دنيا النبات ، ص ٢٧.
٨٢- الفتح / آية ٢٩.
٨٣- الكهف / الآيات من ٣٢ – ٣٦.

٨٤- محمد عبد المنعم الجمال : التفسير الفريد للقرآن المجيد : مؤسسة الأهراء ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٧٨٨.
٨٥- سورة البقرة ، ٥٧.
٨٦- سورة الأنعام ، ١٤١ .
٨٧- سورة يونس ، ٢٤ .
٨٨- سورة إبراهيم ، ٣٢.
٨٩- سورة يوسف ، ٤٧-٤٩.
٩٠- سورة الحجر ، ١٩ – ٢١.
٩١- سورة النحل ، ١٠ – ١١.
٩٢- سورة النحل ، ٦٧.
٩٣- سورة المؤمنون ، ١٩ –٢٠.
٩٤- سورة السجدة ، ٢٧.
٩٥- سورة سبأ ، ١٥ – ١٧.
٩٦- سورة يس ، ٣٣-٣٦.
٩٧- سورة يس ، ٨٠.
٩٨- سورة الواقعة ، ٧١ – ٧٣.
٩٩- سورة عبس ، ٢٤ –٣٢.
١٠٠- زغلول النجار ، ص ٢٦٥
١٠١- تفسير المنار ، جـ ٨ ، ص ١١٨.
١٠٢- في ظلال القرآن ، جـ ١٣ ، ص ٢١٠٧.
١٠٣- المرجع السابق ، جـ ٢١ ، ص ٢٨١٥.
١٠٤- رحلة مع دنيا النبات ، ص ٢٨.
١٠٥- سورة النمل ، ٦٠.
١٠٦- سورة ق ، ٧.
١٠٧- سورة ق ، ٩-١٠.

١٠٨- سورة الرحمن ، ١٠-١٢.

١٠٩- سورة النبأ ، ١٥-١٦.

١١٠- سورة الأنعام ، ٩٩.

١١١- سورة النحل ، ١٣.

١١٢- لسان العرب ، جـ٥، ص ٣٤٩١.

١١٣- محمـــد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مطابع الشعب ، القاهرة ١٩٧٨ . صفحات متفرقة.